



# في رحاب التوراة

دراسات وجوارات روحانية مُعمقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع  
الحاخام جوناثان ساكس

Jonathan Sacks  
THE RABBI SACKS LEGACY

نتقدم إلى عائلة شيميل بجزيل الشكر والعرفان على دعمهم السخي لكتاب "في رحاب التوراة" (Covenant and Conversation)، ونهدي هذا الكتاب ليكرى الحاخام الراحل هاري (حاييم) شيميل طيب الله ذكره. "لقد عشقتُ تعاليم التوراة التي قدّمها الحاخام حاييم شيميل منذ اللحظة الأولى للاطلاع عليها، خاصة وأنه عمل جاهداً على ألا تتطرق تعاليمه للحقائق السطحية فقط، بل تعمق في غلاتها بالحقائق الموجودة وراءها. ورفقة زوجته آن، تلك المرأة الاستثنائية ذات الستين ربيعاً، فقد أسس الحاخام حاييم حياةً مكرسةً لحُب العائلة والمجتمع والتوراة، فكانا زوجين مُتميزين ومثالاً يُعتدّ به بكل ما تحمله الكلمة من معنى، الأمر الذي كان له عميق الأثر عليّ." - الحاخام جوناثان ساكس

With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel. "I have loved the Torah of R' Chaim Schimmel ever since I first encountered it. It strives to be not just about truth on the surface but also its connection to a deeper truth beneath. Together with Anna, his remarkable wife of 60 years, they built a life dedicated to love of family, community, and Torah. An extraordinary couple who have moved me beyond measure by the example of their lives." — Rabbi Sacks

"شوفتيم" هو النصّ الأسبوعي الخامس من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الثامنة عشرة من المقطع السادس عشر وينتهي بالآية التاسعة من المقطع الحادي والعشرين.

## عَظْمَةُ التَّوَاضُعِ

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

خلال مأدبة عشاء أقيمت على شرف أحد الشخصيات العامة، بدأ ضيف من المدعوين للحفل بالحديث عن مناقب ومميزات هذا الرجل، مثل إخلاصه وعمله الدؤوب ورؤيته الثاقبة وغيرها. وعندما أنهى الضيف خطابه اقترب منه الرجل قائلاً: "لقد نسيت أن تذكرَ أمراً آخر"، فسأله الضيف: "ما هو؟"، فأجاب الرجل: "لقد نسيت أن تتحدّث عن تواضعي!"

ومن هنا، نجد أن القادة العظام يتمتعون بالكثير من السمات، لكن التواضع ليس منها في كثير من الأحيان. ومع بعض الاستثناءات محدودة فيما يخص التواضع، فإننا نجد الطموح والاعتداد بالنفس إلى حد كبير من أبرز سماتهم، وهم يتوقعون دوماً أن يتم احترامهم وتكريمهم وطاعتهم بل والخوف منهم، حيث تبدو السيادة على الآخرين أمراً عادياً جداً بالنسبة لهم، وهذا ما تصفه إيلانور روزفلت بأنه "ارتداء تاجٍ خفي".

لكن يوجد فرق كبير بين هذا الأمر وبين التواضع، الأمر الذي يجعل هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة يحتوي على موضوع مؤثّر وغير متوقع أبداً. فالتوراة تتحدّث عن أحد الملوك، ومع علمنا بأن "السُلطة تُفضي عادةً إلى الفساد، والسلطة المطلقة تقود إلى الفساد دون أدنى شك" <sup>1</sup> على حد تعبير لورد أكتون، فإن التوراة تُبَيِّن لنا ثلاث مُغرياتٍ من شأنها أن تُغري الملوك تبعاً لتقاليد الممالك في العالم القديم: فالملك لا يجب عليه أن يُراكم الخيول ولا النساء ولا الثروة، هذه المغريات الثلاثة التي وقع الملك شلومو/سليمان فيها بنهاية المطاف. وهنا تُضيف التوراة ما يلي:

"وكما يجلسُ على كرسي مُلكه، يستكتب له نسخة من هذه التوراة في سفرٍ ... تكونُ معهُ ويقرأُ فيها طوال أيام حياته، لكي يتعلم أن يخاف الله ربه، ويحفظ جميع كلام هذه التوراة، وهذه الرسوم ليعمل بها. لئلا يرتفع قلبه على إخوته، ولئلا يزول من الشريعة يُمنة ولا يُسرة، لكي تطول أيامه على مملكته، هو وبنوه فيما بين بني إسرائيل" (بحسب ما تذكره الآيات 18-20 من المقطع السابع عشر من سفر التثنية).

وإذا كان الملك الذي يعتبر موضع تبحيل واحترام من الجميع يُؤمَّر بأن يكون متواضعاً (لئلا يرتفع قلبه على إخوته)، فما بالك ببقية البشر. وقد كان موشيه/موسى الذي يُعتبر أعظم قائد للشعب اليهودي منذ الأزل "رجلاً خاشعاً جداً، أكثر من جميع الناس على وجه الأرض" بحسب ما تذكر الآية الثالثة من المقطع الثاني عشر من سفر العدد. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كان موشيه عظيماً لأنه كان متواضعاً، أم كان متواضعاً لأنه كان عظيماً؟ وأياً كانت الإجابة فإن الحاخام يوحنا يتحدث عن الله عز وجل قائلاً: "أينما نجدُ عَظْمَتَهُ فهناك نجدُ تواضعه" <sup>2</sup>.

في الحقيقة فإن فكرة التواضع تعتبر واحدة من أعظم الأفكار الثورية الحقيقية التي جلبتها اليهودية عبر تاريخ الروحانية، ومُجرد القول بأنه ينبغي على الملك أن يكون متواضعاً يعتبر أمراً مدعاة للضحك والسخرية تبعاً لمعايير العالم القديم. كما بإمكاننا في الوقت الحالي أن نرى من خلال بقايا وآثار حضارة ما بين النهرين والحضارة الفرعونية في مصر عدداً لا يُحصى من الأعمال التي أنشأها الحكام آنذاك بغرض تعظيم صورتهم. فعلى سبيل المثال نرى أن رمسيس الثاني قام ببناء أربعة تماثيل لنفسه وتماثيل للملكة نفرتاري، وقام بوضع تلك التماثيل على مدخل معبد أبو سمبل. كما كانت هذه التماثيل تبلغ في ارتفاعها حوالي عشرة أمتار، أي ضِعْفِي ارتفاع تماثيل الرئيس الأمريكي أبراهام لينكولن في واشنطن. كما سيكون من الصعب على شخصٍ مثل أرسطو أن يفهم بأن التواضع هو شكلٌ من أشكال الفضيلة، فمن وجهة نظره فإن مُصطلح (megalopsychos) الذي يعني صاحب النفس العظيمة، كان يُقصد به الشخص الأرستقراطي الذي يَعي تماماً بأنه صاحبُ السيادة على جماعةٍ من البشر. بالتالي فإن التواضع والطاعة والخِدْمَة والتقليل من شأن الذات جميعها صفاتٌ للطبقات الدنيا في المجتمع، أي البشر الذين خُلِقوا ليكونوا مَحْكومين، لا حاكِمين. بالتالي نرى كيف أن إلزام الملك بأن يكون متواضعاً كانت فكرة جديدة وثورية جاءت بها اليهودية وتبنتها المسيحية لاحقاً.

وهذا مثال واضح يُظهر لنا كيف بإمكان الروحانية أن تصنعَ فرقاً في أسلوب تصرفاتنا وتفكيرنا وشعورنا، فالإيمان بالله عز وجل وبوجوده يعني أننا لسنا محور هذا الكون، بل الله هو محور هذا الكون ومركزه. وهذا ما نراه في حديث أفرهام/إبراهيم الذي يُعد الأب المؤسس لعقيدةٍ بأكملها حين قال: "أنا تُرابٌ ورمادٌ" (تبعاً لما تذكره الآية السابعة والعشرون من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين). والحال نفسه ينطبق على موشيه الذي يُعد أعظم نبي على الإطلاق حين قال مخاطباً الله عز وجل: "من أنا؟". إن تواضعهما لم يجعلهما ذليلين أبداً، كما أنه لم يجعل منهما شخصين مُتملّفين على الإطلاق، بل كانت لحظة تواضع أفرهام التي وصف بها نفسه على أنه ترابٌ ورمادٌ هي اللحظة التي ناقش فيها الله بخصوص عقابه لقربة سدوم والقرى المحيطة بها. والحال نفسه ينطبق على موشيه الذي وُصف بأنه أكثر الرجال تواضعاً حين تضرع إلى الله لكي يغفر لبني إسرائيل، وإن لم يغفر لهم "فامحني من ديوانك الذي كتبتَه" بحسب ما تذكر الآية الثانية والثلاثون من المقطع الثاني والثلاثين من سفر الخروج. لقد كان كلٌّ من أفرهام وموشيه من ضمن أكثر الشخصيات شجاعة التي أنجبتها البشرية، إلا أنهما كانا مثالين بارزين على شيمة التواضع.

في الوقت نفسه، يوجد فرقٌ رئيسي في اللغة العبرية بين كلمة "عنافاه" التي تعني التواضع، وكلمة "شفلوت" التي تعني تحقير الذات. والفرق شاسعٌ بين الكلمتين لدرجة أن الحاخام موشيه/موسى بن ميمون عرّف التواضع على أنه الطريق الذي يتوسّط بين "شفلوت" والكبرياء.<sup>3</sup> إن التواضع لا يعني التقليل من شأن الذات أو احتقارها، فهذه هي "شفلوت"، بل تعني شعور الإنسان بالثقة بالذات لدرجة أنه ليس بحاجةٍ للآخرين ليمنحوه شعوراً بالاعتزاز بنفسه.

بمعنى آخر، إن التواضع يعني أنك لست بحاجةٍ لإثبات نفسك للآخرين من خلال التظاهر بأنك أكثر ذكاءً وفطنةً أو بأنك موهوبٌ وناجحٌ أكثر من غيرك. إنها تعني ثقّتك بنفسك لأنك تعيش في رحاب محبة الله عز وجل، فهو يؤمن بك حتى وإن لم تؤمن به. بالتالي فإنك لست بحاجةٍ لمقارنة نفسك بالآخرين، إذ لديك مهمة خاصة بك مثلما يوجد لكل منهم مهمة خاصة به، وهذا أمرٌ يدفعك للتعاون مع الآخرين لا لمنافستهم. مما يعني أنك قادرٌ على رؤية الآخرين وتقديرهم كما هم، فهُمْ ليسوا مجرد مرآة تنظر إليها لترى نفسك من خلالها. لذلك ثق بنفسك، فإن ثقّتك بنفسك تجعلك تُقدّر الآخرين، وثقتك بهويّتك تجعلك تُقدّر من لا يُشبهونك. ومن هذا المنطلق فإن التواضع يجعل الذات تتجه خارجاً صوب الغير، انطلاقاً من الفهم القائم على حقيقة أن "الذات ليست هي المحور الذي تدور حوله الأمور".

وعام 1979م قام المؤرّخ الراحل كريستوفر لاش بتأليف كتاب يحمل عنوان "American life in an age of diminished expectations" (الترجسية: الحياة الأمريكية في زمن اندثرت فيه التوقعات)، وقد كان هذا كتاباً نبوئياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث ناقش عبر صفحاته كيف أن انحدار العائلة والمجتمع والإيمان يجعلنا فاقدين تماماً لثقتنا بأنفسنا، ومحرومين من الدعم الاعتيادي الذي تُمدنا به هويتنا وقيمتنا في هذه الحياة. لقد رحل كريستوفر لاش قبل أن يرى زمن صور السيلفي والصور الشخصية على موقع الفيسبوك والماركات الفخمة والمصممة بحجم كبير على المُنتجات حتى يراها الآخرون، وغيرها من مظاهر "الدعاية الذاتية". لكن من وجهة نظري فإنه لن يتفاجأ لو ظل حياً ورأى هذه المظاهر. كما وضح عبر صفحات كتابه بأن الترجسية هي شكل من أشكال انعدام الثقة بالنفس، حيث يحتاج الترجسي إلى تأكيد مستمرٍ من الآخرين على هيئة جرعات مُنتظمة تزيد من تقدير الترجسي لذاته. بعبارة أخرى: الترجسية ليست الطريقة المثلى التي يحيى بها الإنسان.

إنني أرى في بعض الأحيان كيف تمضي النرجسية وانعدام الإيمان يداً بيد في الطريق نفسه، فعندما نفقد إيماننا بالله ماذا ستكون الركيزة التي سيستند إليها ضميرنا؟ لهذا، ليس من قبيل الصدفة أن نجد واحداً من أعظم المُلحدّين في التاريخ المعاصر - نيتشه - يرى في التواضع رذيلةً، لا فضيلةً. وكان يصف التواضع على أنه انتقام الضعفاء من الأقوياء. وليس من قبيل الصدفة أيضاً أن يكون واحداً من آخر كتبه يحمل عنوان "Why I Am So Clever" (لماذا أنا خارق الذكاء؟).<sup>4</sup> وبعد فترة وجيزة من تأليف هذا الكتاب بدأت حالته تتدهور حتى وصل إلى الإصابة بالجنون، فظلّ حبيس هذه الحالة طيلة السنوات الإحدى عشر الأخيرة من حياته.

كما أنه ليس من الضروري أن يكون المرء متديناً حتى يفهم أهمية التواضع. وفي عام 2014م نشرت مجلة (*Harvard Business Review*) نتائج استطلاع للرأي أظهر أن "أفضل القادة هم القادة المتواضعون".<sup>5</sup> فهم يتعلمون من الانتقاد، ويتمتعون بالثقة بالنفس لدرجة كافية لتمكين الآخرين والثناء على إنجازاتهم، كما أنهم يُجازفون على المستوى الشخصي في سبيل تحقيق المنفعة العامة. إنهم مصدر الإلهام الذي يجلب الإخلاص ويقوّي روح الفريق، وما ينطبق على القادة فإنه ينطبق علينا سواء كنا أزواجاً أو شركاء أو زملاء أو أصدقاء أو أبناء مُجتمع واحد.

لقد كان الحاخام الراحل مناحيم مندل شنيورسون من لوبافتش واحداً من أكثر الرجال المتواضعين الذين عرفتهم في حياتي، لكن تواضعه لم يكن يعني أنه شخصٌ يمتن ذاته، بل كان يمضي قدماً في حياته بكل عزة وكرامة. كما كان رجلاً يتمتع بثقة عالية بنفسه لدرجة كانت تبدو عليه هالة الملوك، لكن عندما تكون برفقته لوحده فإنه يجعلك تشعر بأنك أهم شخص في هذا المكان. لقد كانت هذه الميزة فيه هبةً استثنائية جداً، لقد كانت "كالمملكة دونما تاج"، بل كانت تماماً مثلما وصفها رجل الأعمال الأمريكي سينسر و. كيمبل: "عظمة ترتدي رداء البساطة". لقد علّمني هذا الرجل العظيم بأن التواضع لا يعني أن تستصغر نفسك، بل أن ترى العظمة الموجودة لدى الآخرين. وفي هذا السياق يقول السياسي ورجل الدين الأمريكي عزرا تافت بنسون بأن "الكبرياء يتعلّق بمن يكون على صواب، في حين أن التواضع يتعلّق بما هو الصواب". إن طاعة الله عز وجل بكلّ محبة تعني أن تقوم بما هو صائب، لا لسبب سوى أنها الصواب بعينه، تبعاً لما وضح الحاخام موشيه بن ميمون.<sup>6</sup>

بالتالي فإن الحُب يعني الإيثار، والتسامح يعني الإيثار أيضاً، بل إن هذه الأمور هي الإيثار بعينه إن صح التعبير. وعندما نضع ذاتنا في مركز الكون فإننا نُحوّل كل شخص وكل شيء إلى أداة لتحقيق مصالحنا، وهذا أمرٌ يُحقّر الآخرين وبنهاية المطاف سيحقّرنا نحن أيضاً. في حين أن التواضع يعني الحياة في ضوء ذلك الذي هو أعظم منا، فحين يكون الله عز وجل هو مركز حياتنا فإننا سنكون مُنفتحين تجاه عظمة هذا الخلق وجمال البشر الموجودين فيه. وكلّما قللنا من الذات، كلّما اتسع فطر هذا العالم من حولنا.

1. Transcript of Letter to Bishop Mandell Creighton, April 5, 1887, published in *Historical Essays and Studies*, edited by J. N. Figgis and R. V. Laurence (London: Macmillan, 1907).

2. *Pesikta Zutrata*, Ekev.

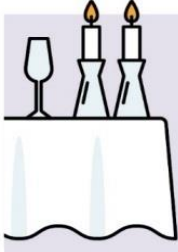
3. Maimonides, *Shemona Perakim* 4; Commentary to Avot, 4:4. In *Hilkhot Teshuva* 9:1, he defines *shiflut* as the opposite of *malkhut*, sovereignty.

الحاخام موشيه/موسى بن ميمون، الفصول الثمانية (شمونة بيراكيم) 4؛ تعقيب على أفوت، 4:4، حيث يقوم بتعريف الـ"شفلوت" بأنها نقيض الـ"ملكوت" (الملكوت بالعربية) في "هلوخت نشوفاه" 1:9

4. Part of the work published as *Ecce Homo*

5. Jeanine Prime and Elizabeth Salib, "The Best Leaders Are Humble Leaders," *Harvard Business Review*, May 12, 2014.

6. Maimonides, *Hilkhot Teshuva* 10:2.



## حَوْلَ مَائِدَةِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ: أَسْئَلَةٌ لِلتَّأْمُلِ

- 1- لماذا يتوجَّبُ على الملكِ أو أيِّ قائدٍ آخر أن يقوم بنسخ التوراة وقوانينها؟
- 2- لماذا قد يتحوَّل التواضع الزائد عن حدِّه إلى "شفلوت" (أي تحقير الذات)؟ وكيف يُمكن تجنُّب ذلك؟
- 3- كيف بإمكاننا تحقيق التواضع في حياتنا عبر جعل الله عزَّ وجلَّ محوراً لها؟

- These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition <https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/shoftim/the-greatness-of-humility/>

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

